يوجد له دواء سوى الوصال، ومن بعض ما كتبت إليه قطعة منها: (من الخفيف).

قد سلبتَ الفؤادَ منها اختلاساً
أيُّ خَلْقٍ يعيشُ دون فؤاد

فأغثها بالوصل تحيي شريفاً
وتفُزْ بالثواب يومَ المَعاد

وأراها تعتاضُ إن دام هذا
من خلاخيلها حُلَى الأقياد

أنت حقاً مُشبِهُ الشمس حتى
عشقُها بين ذا الورى لك بادي

وحدثني جعفر مولى أحمد بن محمد بن خدير، المعروف بالبليني: أن سببَ اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن حُدير وذهاب عقله اعتلاقه بجارية لأخيه، فمنعها وباعها لغيره، وما كان في إخوته مثله ولا أتم أدباً منه.

وأخبرني أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة، أن سبب جنون يحيى بن محمد بن عباس بن أبي عبدة بيع جارية له كا يجد بها وجداً شديداً، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات.

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا وصارا في القود والأغلال، فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهابهم لها، فتوفي رحمه الله. وأما يحيى بن محمد فهو حي على حالته المذكورة في حين كتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيته أنا مراراً وجالسته في القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة، وكان أستاذي وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوي، وكان يحيى لعمري حلواً من الفتيان نبيلاً.

وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً، ولكن لم نسمهم لخفائهم، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد انبتَّ الرجاء، وانصرم الطمع، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره، إذا قد استحكم الفساد في الدماغ، وتلفت المعرفة وتغلبت الآفة، أعاذنا الله من البلاء بطوله، وكفانا النقم بمنّه.

غواص

سليمان أحمد عليوات

١- قُلْ.. ولا تَقُل..

* أيُّهما أفضل، العلمُ أم المال؟

ربما يقولون بأن الصواب أن تسأل: «أيُّهما أفضل، العلم أم المال؟»، وذلك لأن «هُما» في قولك: «أيُّهما» يعود إلى اسمَيْنِ ظاهرَيْن متأخرَيْن في اللفظ عن هذا الضمير المتصل، وهذا لا يجوز.

قلت: إن لنا أن نقول: أيُّهما أفضل.... ففي الكتب الأصيلة أمثلةٌ كثيرة. فمن ذلك ما ورد في كتاب «الأغاني» في بضع مواضعَ مما قرأت:

(١) ففيه أن أم عمرَ بنتَ مروان قالت لطُوَيسٍ المغني: «أيهما أحب إليك العاجلُ أم الآجل»؟

(٢) وفيه أن المُغيرةَ بنَ حبيب قال لعبد الله بن سالم:- وهو شاعر أيضاً مثلُ المغيرة -«وأيهما أحب إليك أَأَقرضُ لك أم لابنك يونُس»؟

(٣) وفيه أن جويريةَ بنَ أسماءٍ قال -على لسان عمه - : «فدتك نفسي! ما أدري أيهما أحسن أحديثُك أم غناؤك»؟

(٤) وفيه أن أبا البيداء قال: «يا أبا الهذيل، أيهما أشعرُ أجريرٌ أم الفرزدق»؟

وفي «العقد الفريد» أنه سئل شُريحٌ: «أيهما أطيب الجوزنيق أو اللُّوزنيق»؟

قال: لست أحكُم على غائب!

وفي «كتاب الحَيَوان» أنه قيل لابنةِ إياس: «أيهما أشد، الشتاء أم الصيف»؟

وفي «أمالي القالي» أن عمَر سأل أبا حثمة: «أيهما أطيب الرطب أم العنب»؟ وغير ذلك.

* تعرُّض للتعذيب: زعموا أن «تعرَّض» يدلّ على رغبة الفاعل في الفعل، والمعذَّب -كائناً ما كان الأذى- لم يرغب في العذاب والأذى، إنما قُهر عليه قهراً!

قلت: وفي «كتاب الحيوان» قال الجاحظ: «فإذا أفرطَ المديحُ وخرج من المقدار، أو أفرَط التعجيبُ وخرج من المقدار، احتاج صاحبُه إلى أن يُثبت بالعِيان أو بالخبر الذي لا يُكذَّبُ مثلُه، وإلا فقدْ تعرض للتكذيب».

وفي «معجم الأدباء» أبياتُ لمحمد ابن أحمد. وقال فيه ياقوت: أحدُ الأئمةِ المعروفين والعلماء المشهورين، تجمع فيه أشتات العلوم وفنون الرواية والدراية، والفهم وشدة العناية، صاحبُ نحوٍ ولغة وحديث وأخبار ودين.... وهو القائل:

لولا تَعرُّضُ ذكرِ مَنْ سكنَ الغضا

ما كان قلبي للضَّنى متعرِّضاً

* ينبغي لك أن تفعل كذا: وهو الصواب، وليس صواباً قولهم: ينبغي عليك.

قالوا: إنما معناه «يجب عليك» فلذلك عدَّوْه بـ «على»! وليس كذلك، لأن «ينبغي» من أفعال المطاوَعة -مثلَ كسَرَهُ فانكسَرَ- مأخوذةٌ من «بغى يبغي» بمعنى طلَبَ وأراد. فكأنك قلت: يتطلَّبُ لك أن تفعل.... ولا يكاد هذا الفعلُ يُستعمل إلا مضارعاً، كقوله تعالى: (لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرِكَ القمرَ) وقوله: (وما علَّمْناهُ الشِّعرَ، وما يَنبغي له). ولذلك عدُّوهُ من الأفعال غير المتصرِّفة.

كذلك يُستعمل بمعنى: يجوزُ، ويَصلُحُ، ويتيسر.

ولم يُسمعْ موصولاً باللام، فلم يقولوا -مثلاً-: إني ليبغي لي أن آكُلَ إذا اشتد جوعي، وإلا هلكت.

* الرِّياسة أو الرَّآسة: إن الرئاسة -بكسر الراء والهمزة- لا تعرفها العربية، وإنما تعرف «الرياسة» بتسهيل الهمزة و «الرَّآسة» بفتح الراء والهمزة الممدودة لا غيرُ، كما هو ثابتٌ في المعاجم الأصيلة.

* تجربة وتجارب: كثُر تنبيه العلماء على خطأ التجرِبة والتجارُب. قال ابن خالويه: ليس في كلام العرب مصدرٌ على وزن تفعُلة إلا حرفاً واحداً. قال الله تعالى: (ولا تُلقوا بأيديكُمْ إلى التَّهْلُكة).

* ذُبابٌ وجمعُها ذِبّانٌ: لأنها مثلُ غُرابٍ وغِربان. وقولهم: ذُبابةٌ أنهاك عنه.

٢- من العامي الفصيح

(باسَه يبوسُه): وفي «الصِّحاح»: البَوْس: التقبيل، فارسي معرَّب.

(البَسُّ والبَسَّة): وهي الهرّة البيتية، وجمعها بِساسٌ.

(تبحبح): وفي حديث خُزيمة «تفطّر اللِّحاءُ وتبحبح الحيا»، أي ازداد الغيث وعمَّ فتمكّن من الأرض، والحيا -كالسِّياق- يقال: حايا فلانٌ فلاناً؛ إذا بعث فيه الحياة.

(تبغْدد عليه): مولَّدة، والمولَّد: كل كلام ليس من أصل لغة العرب، وهذه الكلمة -أعني تبغدد عليه- ذكرها الزَّبيدي، وهي في «لسان العرب»، وكلاهما نقل عن «المحكم» ولم يصرِّح به!

(تفل): فصيحةٌ مثلُ «بصَق» قال المتنبي:

لولا الجَهالةُ ما دَلَفْتَ إلى

قوم غَرِقْتَ وإنَّما تَفَلوا

يقول: لولا جهلُك ما تعرّضتَ لقوم هزموك بأدنى قتال، لأنهم -لكثرتهم- لو تفلوا لأغرقوك.

(تاه يَتوه): قال ابنُ فارس: «التاءُ والواو والهاء ليس أصلاً. قالوا: تاه يتوه مثل: تاه-يتيه، وهو من الإبدال، يعني إبدالَ الياء واواً.

ولا مَفْعَل بمعنى مُفْعَل. إنما يجيءُ المَفعَلُ بمعنى المفعول، فهل تعرف أنت -في كلامهم- مَفْعلاً -بمعنى مَفْعل- معدولاً عنه، فيكونَ مصدراً ملحقاً به؟ هل تعرفه في كلامهم أو تذكر له شاهداً من شعر أو غيره، أو روايةً أو قياساً يحمل عليه؟

- إن أصحابنا يقولون: المصدر ما جاء بمعنى مَفعَل شاذاً لا يقاس عليه، والشواذ في كلامهم غير مدفوعة.

- أما إذا صار إلى باب الشهوات والدعاوى بغير برهان فالكلامُ بيننا ساقط. فأما الشواذ فإنما يُقْبل ما نقلته النقلة وسمع منها في شعر أو شاهد كلام لا ما يدعيه المدعون قياساً.

فقال ابن الأنباري: وقد قال بعض أصحابنا: إن المصدر بمعنى الانصدار، كأنه و الانصدار منه كما قيل (السَّلامُ المُؤمنُ) معناه: ذو السَّلام.

قال الزجَّاجي: فقلت له: فقد رجعَ القولُ بنا إلى أنه في معنى فاعلٍ، وقد مضى الكلام فيه.

٣- نقاشاتٌ ومناظرات

* بين الزَّجّاجيِّ وابن الأنباري (في الصَّرْف):

الزَّجّاجيُّ: ما هو المصدر في كلام العرب من طريق اللغة؟

- المصدر: المكان الذي يُصْدَرُ عنه، كقولنا: مصدر الإبل وما أشبهه. ثم تقول مصدر الرأي والأمر تشبيهاً. والمصدر أيضاً: هو الذي يسميه النحويون مصدراً، كقولنا: ضَرَب ضرباً، وقام قياماً ومقاماً وما أشبه ذلك، وما كان على وزن المَفْعَل يكون مكاناً ومصدراً.

- فإذا كان كذلك، فلم زعم الفرّاء، أن المصدَر مُصدَرٌ عن الفعل؟ فأي قياس جعله بمنزلة الفاعلِ وقد صحَّ عندك أنه يكون معمولاً فيه (١) بمعنى مُصدَر أو مكان كما ذكرت؟ وهل يُعرَف -في كلام العرب- مَفْعَلاً بمعنى الفاعل، فيكونَ المصدرُ ملحقاً به؟

- ليس هو كذلك عند الفراء، إنما هو عنده بمعنى مفعول، كأنه أُصدِرَ عن الفعل، لا أنه هو صَدَرَ عنه، فهو بمعنى مفعول، كما قيل: مَرْكَبٌ فارهٌ ومعناه مركوب، ومَشْرَبٌ عذبٌ ومعناه مشروب.

- ليس يجبُ أن يَجعلَ دليله على صحةِ دعواه ما يُنازَعُ فيه ولا يُسلَّم له ولا نَجِدُهُ في كلام العرب.

- فأين وجهُ المنازعة ههنا؟!

- إجماع النحويين كلهم على أن المأكل يكون بمعنى الأكل والمكان، والمشرب بمعنى الشرب والمكان، ومنه قيل: «رجلٌ مَقْنَع» أي مقنوع به في كلام العرب مَفْعَلٌ بمعنى مُفْعَل: ليس فيه مَكْرَم بمعنى مُكرَم ولا مَعْطى بمعنى مُعْطى.

= في بادىء النقاش وإصراره عليه، بعيداً عن الخلق العلمي النظيف كما ترى في سائر هذه الواقعة.

(١) يقصد اسم المفعول، مع انصراف دلالته إلى المصدر والمكان كما ذكر. وسبب كلامه هو كسره الدال

خزانة فيلادلفيا

* مراجعات:
- « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ».
- « الطريق إلى المستقبل ».
- إصدارات.

محمد عبد الله
د. تيسير مشارفه
التحرير

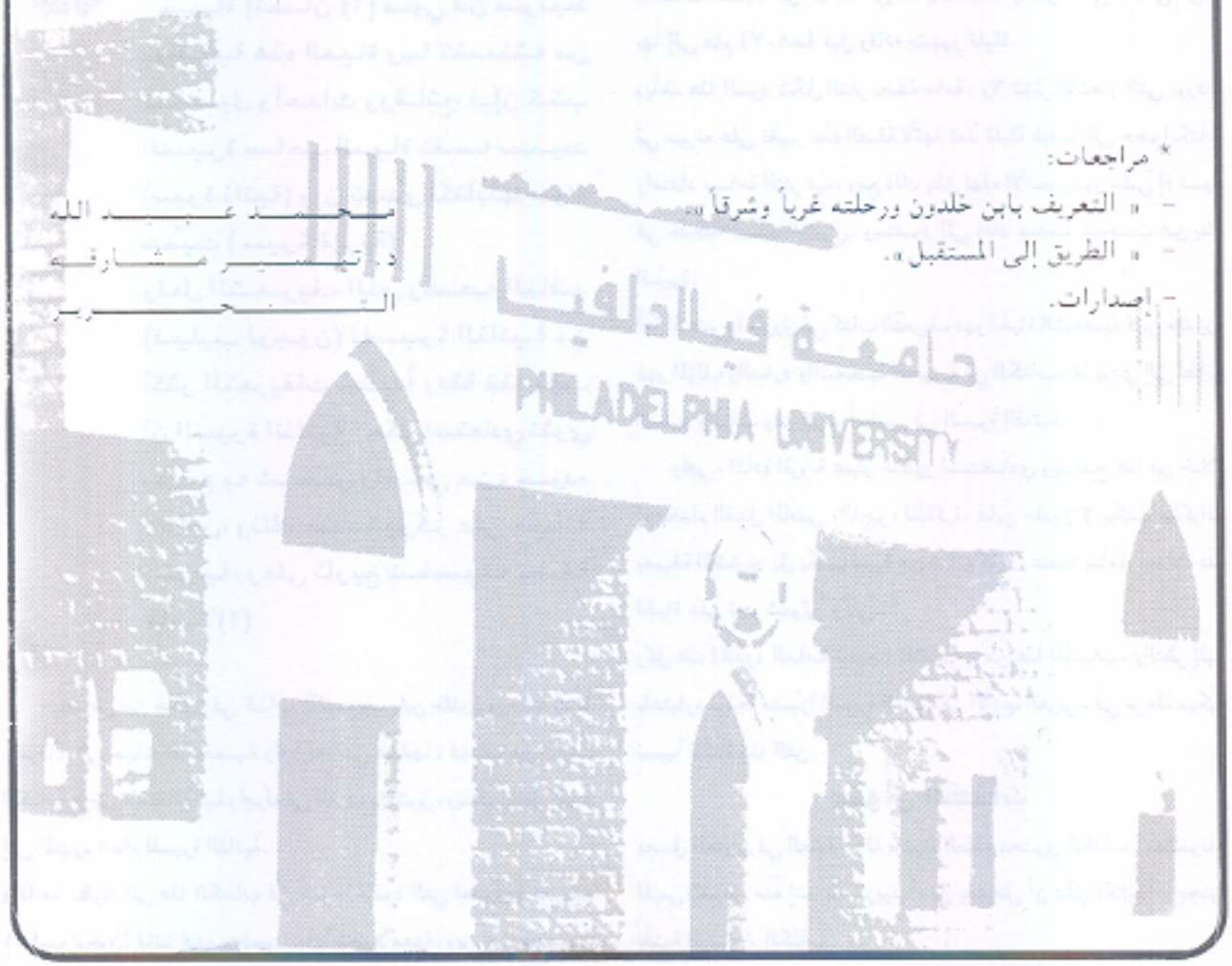

" التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً"

محمد عبيد الله *

- تعرّف السيرة في أوجز معانيها أنها " حياة إنسان"(١) فهي فنّ مرتبط بواقعية هذه الحياة وبما تضمنته من تفاصيل وأحداث ووقائع، فإن كتب السيرة صاحب الحياة نفسه سميت (سيرة ذاتية) وإن تصدّى لكتابتها سواه سمّيت (سيرة غيرية).

ولعل التعريف الذي وضعه الناقد (فيليب لوجون) للسيرة الذاتية من أكثر التعريفات تحديداً ودقة فقد ذهب أن السيرة الذاتية " حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(٢)

- يعرض ابن خلدون في كتاب (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً) إلى حياته الشخصية وتجاربه التي عاشها، فهدفه من تأليف الكتاب عرض حياته الذاتية وتجوّله في المغرب والمشرق، وبذلك يدخل كتابه إلى المفهوم العام للسيرة الذاتية.

وإذا ما نظرنا إلى هذا الكتاب في ضوء الحدود التي تضمّنها تعريف (فيليب لوجون) فإننا نجده يتضمن اتفاقاً مجملاً معها، ويزداد اتصاله بفن السيرة الذاتية.

فمن حيث شكل اللغة يعتمد ابن خلدون أسلوب السّرد والقصّ بتتبّع الأحداث السابقة من حياته، أي أنه يستعيدها بالعودة إلى الماضي، ويمتدّ بها إلى عام (٧٠٨هـ) قبل وفاته بشهور قليلة.

ويأخذ هذا السرد شكل النثر بصفة عامة، ولا تؤثر الأشعار التي يوردها في سيرته على تغيير هذه الصفة لأنها تعدّ قليلة قياساً إلى حجم الكتاب وامتداد مساحة النثر فيه، ومع ذلك يظل لهذه الأشعار دور سلبيّ إذ تسهم في خلخلة السّرد النثري، وسنعود إلى ذلك عندما نتحدث عن بناء السّيرة.

أمّا الموضوع المطروق في كتاب التّعريف فهو الحياة الشخصية لابن خلدون، فهو المؤلف والسارد والشخصية المحورية في الكتاب، مما يؤدي إلى تطابق السارد والمؤلف وهو شرط أساسي في السيرة الذاتية.

وتجيء المادة المروية عبر منظور استعادي ويتّضح هذا من خلال استخدام الفعل الماضي واللجوء للذاكرة، فابن خلدون لا يكتب مذكرات بصيغة المضارع، بل يكتب سيرة عن حياته كلها، عندما يتأمل أحداث هذه الحياة على نحو شموليّ وكليّ.

وكل هذه الحدود العامة تدفعنا للاقتراب من هذا الكتاب، والنظر إليه باعتباره نموذجاً متميّزاً للسيرة الذاتية في الأدب العربي، في مرحلة مبكرة نسبياً لنشأة هذا الفن.

عنوان الكتاب

يحمل العنوان في العادة دلالة متينة الصلة بمحتوى الكتاب ومضمونه، فليس الغرض منه إشارياً وتزيينياً، بل يفترض أن يمثّل تكثيفاً وإيجازاً للبنية الكبرى/ الكتاب.

وعنوان هذا الكتاب تعرّض لمراحل من التعديل والتطوير حتى وصل إلى

* كلية الآداب - جامعة فيلادلفيا

صورته النهائية، تماماً مثلما تعرّض الكتاب نفسه إلى التعديل والتطوير، فقد كان يشكّل القسم الأخير من كتاب العبر وعنوان هذا القسم " التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب" وبذلك يعتبره ابن خلدون جزءاً من كتاب التاريخ.

وظل ابن خلدون يعيد النظر في كتابه ويضيف إليه أجزاء جديدة واتّسع القسم الأخير بما أضيف إليه من المراحل الحياتية التالية أو ما أضافه إلى المراحل السابقة، وأصبح في صورته النهائية يشكّل كتاباً مستقلاً غير متصل بكتاب التعريف، ولذلك عدّل المؤلف عنوانه ليصبح: « التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً».

وقد تتبّع العالم المحقق (محمد بن تاويت الطنجي) النسخ المختلفة للكتاب في مقدّمته الغنية، واستطاع أن يفسّر الإرباك الذي وقع فيه المؤرخون في اسم الكتاب بحسب ما يقع في أيديهم من نسخه، وأوضح مثال على ذلك أن بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) أحال على ترجمة ابن خلدون في آخر الجزء السابع من العبر وأحال على « الرحلة» المحفوظة في مكتبة (أسعد أفندي) ثم على (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) المحفوظ بدار الكتب المصرية، والمجهول المؤلف (٣).

ويمكن اعتبار النسخ الأولى مسوّدات للكتاب ظلت خاضعة للتعديل والتطوير حتى أخذت شكلها النهائي في الصياغة الأخيرة، وما يعنينا هو هذا الشكل النهائي الذي وصل إليه الكتاب، فمن حقّ المؤلف أن يعدّل في كتابه، وإن كان هذا التعديل وطبيعته يمكن أن يكون له دلالات وآثار كثيرة، لو تمكّنا من الاطلاع على نماذج من مخطوطات الكتاب المتنوّعة.

لقد وضع المؤلف العنوان بنفسه ووصل إلى صياغته الأخيرة على هذا النحو «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً».

وكلمة التعْريف مصدر عرّف، وهي واضحة الدلالة على طبيعة موضوع الكتاب من حيث هو بيان وتوضيح لحياة مؤلفه، وقد جاءت معرّفة، وكأن المؤلف يضمّن ذلك دلالة عميقة تتمثل في أنه يعتبر كتابه التعريف الأكمل والأشمل لنفسه، وليس تعريفاً مقترحاً من بين تعريفات أخرى.

وهو بذلك يرغب في تجاوز ما قدّمه الآخرون من تعريف به، ليأخذ الناس معرفتهم به من كتابه وليس من الآخرين الذين ترجموا له، ولعل شخصيته التي كثر الخلاف حولها، وتعدّدت الأقوال فيها، تقف وراء هذه الرغبة، فهو يعتبر نفسه مظلوماً من معاصريه، وهم ينطلقون من الغيرة ومن الكيد له كما يلحّ على ذلك في كتاب التعريف كلما أراد تبرير موقف معين وتفسير رأي الناس فيه.

وهو بذلك يضع هذا التعريف ليقدّم الصورة التي يريدها لنفسه وليس الصورة التي رآها الآخرون وشكّلوها مثلما يشتهون.

وأما رحلته: فهي حياته ذاتها لأنّ هذه الحياة كانت حياة صاخبة ورحلة دائمة لم يتوقف فيها عن التنقل والحركة، فالرحلة عند ابن خلدون تستغرق الحياة كلها، وليست انتقالاً اختيارياً يقصد منه التمتع، والنزهة والتفرّج على العالم الممتدّ.

وقد ابتدأ المؤلف بالغرب لأنه موطنه الأول الذي قدّم الحديث عنه في الكتاب، وظل حاضراً -من خلال الحنين- حتى في القسم الذي يتحدث فيه عن المشرق عندما ارتحل إليه عام ٧٨٤هـ ولم يعد بعدها إلى الغرب حتى وفاته.

ومثلما كان ابن خلدون موضع اختلاف في حياته، فقد ظل شخصية خلافية وإشكالية بعد مماته وحتى أيامنا، ولعل المعركة الأخيرة بين بعض كتاب مصر وكتاب تونس مثالاً حاضراً على هذا الخلاف(٤).

غاية السيرة ونوعها

وضع أستاذنا إحسان عباس هذه السيرة ضمن الصنف الذي يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير، إلى جانب سيرة المؤيد في الدين، ومذكرات الأمير عبد الله « وكل واحدٍ من هؤلاء كانت تكتنفه ظروف مضطربة فيها مجال للأخذ والردّ والقيل والقال، فكتبوا سيرهم لينصفوا أنفسهم أمام التاريخ، وليبرروا ما جرى لهم من زاوية ذاتية»(٥).

أما الدكتور شوقي ضيف فيرى أن كتاب التعريف « مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التي ألمّ بها، وكل ما كان يجري بها من شؤون سياسية واجتماعية، وستظل هذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التي دوّنت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام لعصره»(٦).

لقد عاش ابن خلدون في مرحلة سياسية مضطربة وشهد أحوالها وأسهم فيها، وهو ما دفع الدكتور شوقي ضيف إلى تقديم الوصف السياسي ليجعله سمة هذه السيرة وأهم خطوطها، ومن هذه الشؤون السياسية وحديث ابن خلدون عنها يولد هاجس التبرير والتعليل والتفسير الذي عرض له الدكتور إحسان عباس، فقد عاش المؤلف هذه الظروف السياسية وأسهم في التخطيط لها وتنفيذها وتحوّل بين الأمراء والدول المختلفة، وتعرّض للاتهامات بالخيانة وعدم الثبات على موقف واحد، وتشكّلت له صورة

معينة عند النّاس، فكتب سيرته دفاعاً عن نفسه، ومبرراً سلوكه حيال مختلف المواقف التي شارك فيها، مفسّراً هذه المواقف، ومعتذراً عما بدر منه، لا من باب التراجع، بل ليقول إنه لم يكن يملك إلاّ ذلك الموقف ضمن طبيعة الظروف التي عاشها.

ومن أمثلة التبرير ما تحدث عنه ابن خلدون حول سجن السلطان أبي عنان له ومشاركته مع صاحب بجاية في التخطيط ضد أبي عنان ويروي هذه الحادثة فيقول:

« وكانت قد حصلت بيني وبين الأمير محمد صاحب بجاية من الموحدّين مداخلة، أحكمها ما كان لسلفي في دولتهم، وغفلت عن التحفظ في مثل ذلك، من غيرة السلطان فما هو إلاّ أن شغل بوجعه، حتى ألقى إليه بعض الغواة، أن صاحب بجاية، معتمل في الفرار ليسترجع بلده.. فانبعث السلطان لذلك، وبادر بالقبض عليّ، وكان فيما ألقيَ إليه، أني داخلته في ذلك، فقبض عليّ، وامتحنني، وحبسني وذلك في ثامن عشر صفر سنة ثمان وخمسين »(٧).

فهو يبرر اتصاله بالأمير محمد لأن أجداده، متصلون بأجداد الأمير ولهم دور في دولة الموحدّين، ويبرّر سجن الأمير له بأنه لم يتحفظ في هذه العلاقة وكأنه لا يشعر بارتكاب ذنب أو خطيئة تجاه الأمير، فاتصاله كان اتصالاً بريئاً فرضته علاقات قديمة مستحكمة، ولكن الغواة هم الذين شوّهوا صورته، وفسّروا اتصاله بالتآمر مما أدّى إلى حبس السّلطان له.

كما أنه يبرر خروجه على الوزير عمر بعد أن أسهم معه في الثورة بدار الملك ويفسّر تحوله الجديد ثم تغيره على الوزير فيقول« وكنت أسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كنتُ فيه، وأدلُّ بسابقة مودّة معه،...(٨)»، فهو يسوّغ طلبه وظيفةً أرفع بـ "طغيان الشباب"، وما كان بينه وبين الوزير من مودّة، ويجعل ذلك مسوّغاً كافياً لهجر الوزير والقعود عن دار السلطان بالرغم من أنه يعترف في البداية بأن الوزير عمر « أقرني على ما كنت عليه ووفر في اقطاعي، وزاد في جرايتي»(٩).

ويمضي على هذا النحو يعلل ويبرر مواقفه وتحوّلاته السياسية وهو بذلك يهدف إلى تبرئة نفسه مما يوّجه له من اتهامات.

وكثيراً ما يفتقد العلة المناسبة فيلجأ إلى ذكر الحُسّاد والغواة وكثرة المنافسين له، وذلك لتبرئة ذاته مما وُصفتْ به من قبل الآخرين.

« لقد اتهم ابن خلدون بأنه شارك في بعض الانقلابات، ولما كان في الأندلس، أخذ يتنكر له الناس حتى صديقه لسان الدين ابن الخطيب، ولما كان في مصر ولي القضاء وعزل عنه عدة مرات حتى ليظن الناظر إلى هذا التقلب في حياته أن العيب في شخصه لا فيمن حوله، فكتب سيرته منتصفاً لنفسه، وأبان عن وجه الحقيقة كما كان يراه»(١١).

ويتحدث الدكتور عبد العزيز شرف عن(الوظيفة التاريخية السياسية)(١٢) لهذه السيرة محوّراً رأي الدكتور شوقي ضيف باستخدام مصطلحات إعلامية كمصطلح (الوظيفة) دون إضافات جوهرية.

ويرى الدكتور إحسان عباس أن السيرة « لم تخلُ من غرض آخر وهو تصوير تلك الشهرة العريضة والمنزلة الرفيعة التي نالها في الحياة السياسية والاجتماعية، حتى كان من ثقته بنفسه أن سعى لمقابلة تيمورلنك (السلطان تمر - كما يسميه-) بل إن هذا السلطان نفسه سأل عنه ورغب في لقائه»(١٣).

ومما يقع ضمن هذا الغرض ما عرضه ابن خلدون عندما تحدث عن انتقاله إلى مصر، فقد سبقته شهرته وانهال عليه طلبة العلم « ولما دخلتها، أقمت أياماً، وانثال عليّ طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلّة البضاعة، ولم يوسعوني عذراً، فجلستُ للتدريس بالجامع الأزهر منها »(١٤).

الملامح والأبعاد الفنّية

حضور الذات

تمثل شخصية ابن خلدون محوراً للأحداث التي يرويها المؤلف في كتابه، فهي البؤرة التي تنطلق منها الإشعاعات باتجاه الخارج لتغني، مساحات متصلة به وبتفاصيل حياته والأحوال والوقائع التي عايشها وأسهم في حركتها وتطورها وتشكّلها.

فالكتاب مخصص للتعريف بابن خلدون وحياته في المغرب وفي المشرق، والمؤلف شخصية مشهورة ومرموقة، وهو يريد تقديم الصورة الحقيقية لشخصيته مثلما يريد هو لا مثلما صوره الآخرون -كما بيّنا عند الحديث عن غاية السيرة- ولذلك يدور الكتاب حول شخصيته وأخباره وحياته بمختلف مكوّناتها واضطراباتها.

ويزداد إحساس المؤلف بأهميّة شخصيته حتى يقرأ التقدير والإجلال في عيون الآخرين، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عندما أورد نصوص خطبه التي ألقاها حينما تسلّم مناصب التدريس والقضاء في مصر، فمن المعتاد أن يلقي صاحب الوظيفة خطبة في بدء عمله، وقد ختم خطبته التي ألقاها يوم تولّى التدريس في المدرسة القمحية:« وانفضّ ذلك المجلس وقد شيّعتني

العيون بالتّجلة والوقار وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب»(١٥).

ومع الحضور الواسع للذات وارتباط السيرة بها، إلا أن توسع ابن خلدون في إضاءة الظروف المحيطة به يتسع أحياناً، بسبب حضور الهاجس التاريخي عند المؤلف، وبسبب كون الكتاب في أصله قسماً من كتاب (العبر)، وبالرغم من التعديل والتطوير اللذين لحقا بالتعريف إلا أن صلته بالعبر لم تنقطع بسبب هذه الإضاءات التاريخية في بعض أجزاء التعريف.

ومن أمثلة هذا التجاوز عن حضور الذات ما فعله المؤلف عندما ذكر شيوخه وترجم لهم وأطال في ذلك، وعندما انتهى من هذه التراجم المختصرة قال: «هذا ذكر من حضرنا من جملة السلطان أبي الحسن، من أشياخنا وأصحابنا، وليس موضوع الكتاب الإطالة، فلنقتصر على هذا القدْر، ونرجع إلى ما كنّا فيه من أخبار المؤلف»(١٦).

فابن خلدون يعي أن شخصيته هي محور الكتاب، وأن أخباره هي مادة (التعريف) ومع ذلك يسمح لنفسه ببعض التجاوزات استجابة لوطأة الهاجس التاريخي ونزعة التتبع التي اعتاد عليها.

لم يفارق الهاجس التاريخي ابن خلدون حتى وهو يكتب سيرته الذاتية، فهو عندما يذكر شخصية معينة، أو يعرض لحادثة ما تستشيره هذه الروح فيمضي لتوضيح تلك الحادثة بتفصيل يتجاوز ما تسمح به حدود السيرة الذاتية، أو يذهب طويلاً في التعريف بشخصيات اتصل بها أو صاحبها في مشوار حياته.

ومن أمثلة هذا التجاوز وحضور الهاجس التاريخي قوله:« وسرت إلى سَبْتَة قرضة المجاز وكبيرها يومئذ الشريف أبو العباس أحمد بن الشريف الحسين، ذو النسب الواضح السالم من كل ريبة عند كافة أهل المغرب انتقل سلفه إلى سبتة من صقلية... »(١٧)، فنلاحظ أنه بدأ بالحديث عن نفسه (سرت...) ثم عندما ذكر صاحب سبتة وكبيرها استيقظت نزعته التاريخية فمال إلى تعريفنا بهذا الشخص ونسبه وأصله وهو ما يخرج عن حدود الكتاب من حيث اعتباره سيرة ذاتية مخصّصة لحياة صاحبها لا حيوات الآخرين.

ويبدو هذا التجاوز من الذات إلى التاريخ واضحاً في حديثه عن «فتنة التاصري» في المرحلة المشرقية، فلم يكتف بسرد ذكرياته عن هذه الفتنة بمقدار ما أحسّ بها أو تأثر بأحداثها، بل عرضها لنا عرضاً تاريخياً فيه توسع مفيد، ولكنه يؤدي إلى إخفاء شخصية المؤلف وتغييبها.

وكذلك يبدو الاهتمام بالتاريخ واضحاً حينما تحدث عن التتر ومقابلته لأميرهم (تيمورلنك)، فهو لم يتوقف عند اتصاله الذاتي بهم، بل ابتدأ حديثه بالتعريف بهؤلاء التتر (أو الططر) وقال:

« فلنذكر كيف انساق المُلك لهؤلاء الططر، واستقرت الدول الإسلامية فيهم لهذا العهد فنقول... »(١٨)، ثم تحدث حديثاً طويلاً عن التتر وأصلهم، وهو حديث تاريخي لا يتّصل بسيرة ابن خلدون بل بالتاريخ، وموضعه خارج السيرة، ولكن الذي حمله إليه رغبته في التتبع، وهي نزعة قادمة من اهتمامه بالتاريخ، فلم يسوغ لنفسه الحديث عن الأمير (تَمُر) دون أن يتتبع تاريخ التتر حتى يصل إلى تيمورلنك.

ومع حضور هذا الهاجس التاريخي في كتاب التعريف فإنه لا يصبح بأية حال محوراً أساسياً له، أي أن شخصية المؤلف تظلّ هي المحور الأساسي لكلّ هذه الأحداث وقد انتبهت الباحثة (أنعام شعبان) إلى حضور التاريخ واهتمام ابن خلدون به، ولكنها بالغت في تقدير العامل التاريخي حين قالت عن الكتاب « يلاحظ عليه غلبة الطابع التاريخي وهو المجال الذي برع فيه ابن خلدون فكانت الغاية الرئيسية مما كتبه عن نفسه أن يثبت الوقائع التي ذكرها في تاريخه، لذلك نرى شخصية ابن خلدون في هذه السيرة تختفي وراء الأحداث التاريخية»(١٩).

فهذا الحكم فيه الكثير من المبالغة، وخطل التقدير للعامل التاريخي ومدى حضوره في الكتاب، وما نراه أنه يظل عنصراً منظوراً خلف شخصية المؤلف، يستنهضه إخلاص ابن خلدون للتاريخ والروح التاريخية التي امتزجت بروحه والتبست بها، كما أنه لم يهدف إلى إثبات الوقائع التي ذكرها في تاريخه، بل لكي يعرّف بنفسه، ويذكر أخباره وأحوال حياته وقد ألح على ذلك مراراً، إضافة إلى أنه هدف واضح في عنوان كتابه.

الصراع

تمثل حياة ابن خلدون كلها صراعاً دائباً مع كل ما حوله، فقد ابتدأ الدخول في ضجيج الحياة السياسية منذ شبابه المبكر، وعاش كل اضطرابات عصره قريباً من مسبّباتها ومشاركاً فيها.

وفي تأملنا للدور السياسيّ لابن خلدون صورة واضحة لشخصية عاشت في قلب الصراع السياسي وما فيه من تقلبات وتغيرات، وقد بدت شخصية ابن خلدون شخصية صلبة في بطشها بأعدائها، وفي إقناعها لمؤيديها أيضاً، ولكنه مع ذلك كان يحني رأسه ليسمح للعاصفة بأن تمرّ.

وقد لمس أستاذنا إحسان عباس هذه الطريقة في مواجهة المشاكل وأنه كان أميل إلى طبيعة الاستسلام « وهي طبيعة يمثلها ابن خلدون نفسه، على صلابة عوده، لأنه إذا واجه المشكلة تنحى عنها لتمر، أو اختار الهجرة لئلا يضعف إزاءها، وهو يُعزَل ثم يولّى ثم يعزل ثم يولّى، ويتقبل هذه الأمور كأنها أحداث تجري بمعزل عنه وعن تفكيره وتقديره»(٢٠).

فالصراع موجود في كل الأشياء من حوله، وهو يسهم في هذا الصراع، ولكنه لا يحـــوّله إلى قلق فني مـــؤثر في العـــمل الفني « ومعنى هذا أن الإحساس بالصراع الذي يخلق الفن ضعيف (.....) أما الصراع نفسه فحاضر في كل مرحلة من مراحل الحياة»(٢١).

ومن الأحداث البارزة على الصعيد الشخصي موت أهله وولده وهم في طريقهم إليه عندما غرقت بهم السفينة في مرسى الإسكندرية، ويروي ابن خلدون هذا الحدث المؤلم الذي تزامن مع اشتداد المعارضة له أيام توليه القضاء:

« فكثر الشغب عليّ من كل جانب، وأظلم الجوّ بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين فأصابها عاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير السلطان وسخطه، فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس وعن قريب تداركني اللطف الرباني وشملتني نعمة السلطان في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة»(٢٢).

وفي موضع آخر يتحدث عن مصابه باختصار « فركبوا البحر من تونس في السفين، فما هو إلا أن وصلوا إلى مرسى الاسكندرية، فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه وما فيه، وذهب الموجود والمولود، فعظم الأسف واختلط الفكر وأعفاني السلطان من هذه الوظيفة وفرغت لشأني من الاشتغال بالعلم تدريساً وتأليفاً»(٢٣).

هذا ما يذكره ابن خلدون عن هذا المصاب الأليم، وإذا كنا نلمس بعض ظلال الصراع والألم النفسي في عبارات «ذهب الموجود والمولود، وعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، وعظم الأسف واختلط الفكر» لكن هذه العبارات وإن كانت تدل على مقدار من الألم النفسي، إلا أنها مختصرة وموجزة وكأنما هرب ابن خلدون من ذكرى أهله وولده، وتحامل على نفسه مكتفياً بإجمال مشاعره، متهرباً من القلق الذي يخلق الفن، وكأنه لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام الناس.

ولكن هل تقبل منه بقاء في المنصب خشيةً من نكير السلطان وسخطه، بعد ما اعتزم الخروج عن المنصب لإحساسه بالجزع، وميله إلى الزهد، ومع ذلك لا ننكر ما خلف عباراته من عذاب وألم وحيرة « فوقفت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس» ولكن إحساسه بالصراع لم تحول إلى صراع خلاق لكنا أمام نص آخر يختلف في درجة جماله وما يتضمنه من إبداع كالذي يخلقه الصراع المتشابك مع الفن.

بناء التعريف

يعدّ البناء الفني شرطاً أساسياً لأي عمل أدبي، ولكي « تنتهي السيرة الذاتية إلى الفنون الأدبية (المحتاج) أن يكون لها بناء مرسوم واضح يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة»(٢٤).

ويتوافر كتاب التعريف على بناء واضح يبتدئ من تتبع ابن خلدون لمراحل حياته منذ ولادته وطفولته، ثم ينمو البناء مع نمو الشخصية وامتداد علاقاتها مع الآخرين، ويتعقد مع ازدياد الاتصال مع الآخرين وتعقده وتشابكه، فهو بناء نامٍ مطّرد يسير مع خط الزمن مبتدئاً من الماضي البعيد ومتداً إلى لحظة كتابة المؤلف أو وقت كتابته للتعريف.

فينظر ابن خلدون إلى مسيرة حياته ضمن تصوّر كلي وخطةٍ مؤثرة، وقد أسهمت هذه النظرة في تماسك كتاب التعريف وانسجام أجزائه ومراحله المختلفة في بناء كلّي متوحد، وليس أجزاء متناثرة مضمومة إلى بعضها في هيئة إضافات تاريخية، ولذلك فهو يتمتع بالوحدة والترابط والانسجام الداخلي.

ومثلما يعدّ الزمن عنصراً أساسياً في هذا البناء بحيث ينمو البناء مع تنامي الزمن وامتداده، فإن المكان له دوره في تشكّل البناء، وذلك حينما يرصد المؤلف الأمكنة التي عاش فيها وتنقل بينها، متأثراً بظروفها وأحوالها.

ففي المغرب كانت شخصيته تأخذ الكثير من ملامح تلك الأمكنة بما فيها من اضطراب وتغيّر، وهكذا مضى يتنقل بنا زمنياً ومكانياً من أقاليم المغرب إلى الأندلس ثم إلى مصر والشام وفلسطين، والحجاز وسائر الأمكنة التي أقام فيها أو زارها، وكان لهذه الأمكنة دورها في تذكير المؤلف بما عاشه فيها وبما واجهه من ظروف متصلة بطبيعة المكان وأحواله السياسية والثقافية